بنية الحجاج و آليات بيانها في سورة «النبأ»
(دراسة تطبيقية)

د. أمير فاضل سعد العبدلي
جامعة الحديدة. اليمن
afsk70@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 04/03/ 2017م
تاريخ القـــبول: 12/04/ 2017م

الملخص باللغة العربية:

يدرس البحث بِنْيَة الحجاج وآليات بيانها في سورة النبأ، فينظر في تأثير المفردة وقوة بيانها، ثم يتَرَقَّى في التحليل والنظر إلى مستويات أكبر وأكثر؛ ليستكشف جلال الفكرة، وجمال العبارة، ودلالات الأساليب، ثم العلاقات التي تجمعها وتشكل مكوناتها، ثم ما تؤول إليه هذه المعطيات اللغوية من حقائق واقعية موصولة بعلاقات منطقية، ثم ما تحققه هذا كلها من قوة تأثير في المعنيين بالخطاب في هذه السورة، واقناعهم بالفكرة التي تستهدف السورة بيانها، وتحثهم للأخذ بها.

ولقد تأكَّد للبحث أنه كلما اتسعت بُنَى التراكيب تعددت آليات بيانها وتنوعت؛ ومن ثم قويت حجتها وتأثيرها، وأنّ العلاقات المنطقية في معطى اللغة الموصولة بالكوني والإنساني في واقع الحياة هي مُكَّون رئيس في حجاج السورة وإقناعها العقلي؛ ومن ثم يتصل عالم النص بعالم الحياة وأحواله ومآلاته، وتتصل مقدمات سورة النبأ بنتائجها، ودلالات السلب في مطلعها بنتائج سلبية في نهايتها، وهذه المعاني والأحوال تجسد ممارسات الإنسان في حياته .. في مداها القريب والبعيد .

الكلمات المفتاحية:

حجاج – بَيِّنة – برهان – بيان – بلاغة – القرآن – النبأ..

The structure of the argument and the mechanisms of her statement

in the «naba»(An Applied Study)

Dr. Amir Fadel Saad Al Abdali

Yemen, Hodeidah

Hodeidah University

afsk٧٠@yahoo.com

Abstract

The research examines the structure of the pilgrims and the mechanisms of her manifestation in Surah Al-Naba'a. The research looks at the word potentials and the strength of her influence, and then rises in the analysis and looks to greater and greater levels. Jalal reveals the idea, the beauty of the phrase, the possibilities of methods, then the relations that combine and form the components, this linguistic data from real facts connected to a logical relationship, then this is achieved by all of the strength of the impact of the speech involved in this Surah, and convince them the idea that target Sura statement, and urging them to take it ..

The logical relationships in the given linguistic structure connected with the universe and the human in real life is a major component in the pilgrims of the Sura and the mental persuasion; then the world of the text relates to the world of life, its conditions and its mechanisms, relate to introductions to the news Sura their results, and indications of looting in the opening lines with negative results at the end, and these meanings and conditions attached to the practices of human in his life .. in the near and long-range

Keyword

pilgrims- argument- proof- statement- eloquence- the

أولا: المقدمة

إن قرآننا ينتظم حياتنا، ويتنفس به وَعْيُنَا، ويتشكل به فكرنا وهُويَّتنا، وهو المعجز في أسلوبه فلا يرقى لبيانه لسان، ولا يدرك مداه إنس ولا جان، يتسع لحقائق الوجود وأحوال الإنسان ومآلاته كلها؛ ومن ثم فإن **هدف** البحث دراسة هذه المعاني السامية في أداء القرآن الكريم، وبيان أدائه المبين، بتناول بنية حجاجه في سورة النبأ وآليات بيانها للمعنيين بالخطاب ثم أثرها فيهم؛ إذ إن القرآن خطاب موجه للمخاطبين للتأثير فيهم، وإقامة الحجة عليهم؛ وقد وظّف القرآن الكريم آليات بيانية عدة لتحقق هذه الغايات[1]، واستفاد منها في بناء حجته، وبيان فكرته، وتحقيق مقاصده..

ثانياً- تأسيس المفاهيم:

الحِجَاج -في اللغة- من حاججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، **والحُجّة**: ما دُفِعَ به الخصم، **والحجة**: البرهان، **والحجة**: الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة[2]، وصيغة «**الحِجَاج**» تفيد مشاركة أكثر من طرف في تقديم الحجج، وتفيد -كذلك- دفع الحجة بالحجة.

و **الحِجَاج** -في الاصطلاح- هو «ما دل به على صحة الدعوى»[3]؛ ومن ثم فإنه يركز على ما يُثْبِتُ قضية، أو يُدْفَع به حكم ما، أو يُبْنَى عليه موقف.

وورد **الحِجَاج** - عند العرب - قريب من معنى الجدل، ففي كتاب الكليات: «الجدل هو عبارة عن دفع المرء خصمه، عن فساد قوله لحجة أو شبهة، وهو لا يكون إلا بمنازعة غيره»[4]، وقال نجم الدين الطوفي» : وموضوع -أي الجدل- هو الأدلة من جهة ما يبحث فيه عن كيفية نظمها وترتيبها على وجه يوصل إلى إظهار الدعوى وانقطاع الخصم، وغايته رد الخصم عن رأيه ببيان بطلان»[5]، وقال ابن سينا : أما المجادلة فهي «مخالفة تبغي إلزام الخصم بطريق مقبول محمود بين الجمهور»[6].

والحجاج كما يرى (طه عبد الرحمن) هو: «كل منطوق موجّه إلى الآخر لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»؛ ومن ثم يؤكد أنه «**لا خطاب** بغير حجاج، **ولا مُخاطب** من غير أن تكون له وظيفة المدعي، **ولا مخاطَب** من غير أن تكون له وظيفة المعترض».

إن **الحِجَاج** هو عملية فكرية ذات هدف إقناعي؛ ومن ثم فإنه خطاب موجَّه للتأثير على آراء المخاطب وسلوكياته للحصول على عمل ما أو الإعداد له، وللتأثير اللغوي وفعاليته الحجاجية لا بد من إدراك ملابسات **السياق**، وتفاعل المعاني مع مقام التواصل، **ثم** الأخذ بتقنيات لغوية مخصوصة ومناسبة له؛ ومن ثم يلزم فحص الخطابات الحجاجية بحثًا في الأفعال الكلامية ومقاصدها السياقية[7]، ثم طرح الحجج النافذة

(1) ينظر: بن عيسى، عبد الحليم، **البيان الحجاجي في إعجاز القرآن**، ص33

(2) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (ح ج ج)، وينظر: ابن فارس : **مقاييس اللغة**، مادة (ح ج ج)

(3) الجرجاني: **التعريفات**، تح: إبراهيم الإبياري، ص482

(4) الكفوي، أبو البقاء الحسيني، **الكليات**، ص66

(5) الطوفي، نجم الدين، **عَلَم الجدل في علم الجدل**، ص4

(6) الرئيس ابن سينا، **الشفاء (كتاب الجدل)**، ج1، ص23

(7) ينظر: نعمان بوقرة، **نظرية الحجاج**، ص142، وينظر: الشهري، عبد الهادي بن ظافر، **استراتيجيات الخطاب**، ص476.

والمؤثرة للخطاب اللغوي حتى يتحقق الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة.

والهدف الأساسي «للخطاب الحِجَاجي» هو الوصول إلى إقناع السامع بفكرة قد أخذ منها موقف الرافض أو المتشكك، ثم إثباتها أو نقضها [1]، فنحن في نظر (إيفانوكس): نعيش لحظة الإقناع، والتركيز على أدواته[2]؛ إذ يقوم المتكلم بنَقْض الفكرة المسيطرة على ذهن المتلقي، ثم إحلالها بالفكرة التي جيء بالحجة لإثباتها؛ ولهذا فإن كل الذين تعرضوا لتعريف الحُجَّة بينوا أنَّ «الحجاج يستهدف استمالة عقل المتلقي، والتأثير على سلوكه وإقناعه»[3]؛ ولهذا يستلزم **الحِجَاج** «دراسة طبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها، وتحقيق انسجامها الإيجابي مع الطرح المقدم لها ..»[4].

وتسهم في «**نظرية الحِجَاج**» جوانب مختلفة لا تتعلّق باللغة فحسب، بل ترتبط - أيضًا - بالجانب النفسي، والاجتماعي، والثقافي .. وغيرها من الجوانب التي تُشَكِّل الخطاب اللغوي الحجاجي، وقد ذكر (أرسطو) **ثلاثة أنواع** من التصديقات التي قد يلجأ إليها المتكلِّم من أجل الإقناع «منها ما يكون **بكيفية المتكلم** وسمته، ومنها ما يكون **بتهيئة السامع** واستدراجه نحو الأمر، ومنها ما يكون **بالكلام** نفسه ..»[5].

فيجب على **المتكلِّم** أن يوفي ما تستدعيه الصياغة اللغوية، وتقديم تصوره في المساحة الملائمة لها، ثم مَنْح هذه الصياغة القدر المناسب من الحجج التي لا يشكِّل إيرادها في الموضوع مفارقة أو نشازًا [6]، ويجب -كذلك- مراعاة **أحوال المخاطب** الذهنية سواء كان خالي الذهن، أم متردداً، أو منكراً، ثم ما يستدعي كل حال من توظيف تقنيات الحِجاج المناسبة لدفع الشك، أو الجحود أو التردد لدى المتلقي؛ ومن ثم فإن هذه المعطيات - التي أكدها البحث في فقراته هذه - سيأخذ بها وهو يحلل المعطى اللغوي وآليات بيانه في سورة النبأ، وينظر في حيثياته المؤثرة في الاختيار اللغوي المناسب، والمفيدة في بيان مقاصد سياقات هذه السورة.

ثالثا: نص الدراسة.

قال الله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ

(1) ينظر: الحواس مسعودي، **البنية الحجاجية في القرآن الكريم** سورة النمل نموذجًا»، ص329

(2) إيفانوكس، **نظرية اللغة الأدبية**، تر: حامد أبو أحمد، ص177

(3) جميل عبد المجيد، **البلاغة والاتصال**، ص7.

(4) ينظر: ولد محمد الأمين، محمد سالم ولد سالم (**مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره**)، ص68

(5) أرسطو، **الخطابة**، تح: عبد الرحمن بدوي، ص9

(6) ينظر: ولد محمد الأمين، محمد سالم ولد سالم، **مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره**، ص81

فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ١ - ٤٠]

وسيعمد البحث إلى **تحليل** البنية اللغوية في سورة النبأ، ثم يقوم **باستكشاف** آليات بَيِّنَة حججها، ثم **توصيف** أنماطها وقوة تأثيرها في المخاطبين، في مستويات دلالية عدة، نناقشها في الآتي:

المستوى الأول في الصيغة اللغوية المفردة:

إن في تحليلنا البنية الاستدلالية في سورة « النبأ » نرصد أفعالاً كلامية تؤدي وظيفة حجاجية ودلالية، كما يؤكد ذلك (ديكرو Ducrot) فيقول: « إن كثيراً من الأفعال الكلامية لها وظيفة حجاجية، توجه المتلقي إلى نتيجة محددة، أو تصرفه عنها؛ ومن ثم يمكن القول إن الجملة نفسها يمكنها أن تحمل دلالات وصيغ أسلوبية عدة يمكنها أن تدلي بتوجيهات حجاجية للملفوظ نفسه؛ وتعمل على توجيه المتلقي..»، ومن أبرز المفردات التي لها وظيفة حجاجية في سورة «النبأ»: (**مختلفون**)، و(**يتساءلون**)، و(**خلقناكم**)، و(**جعلنا**)، و(**بنينا**)، و(**أنزلنا**)، و(**نخرج**) .. ومن امكانات هذه المفردات ودلالاتها المفيدة والمؤثرة في البيان الآتي:

يتساءلون – يسألون:

إن وزن «**يتساءل**» هو «يتفاعل»، وتفيد هذه الصيغة اللغوية المفردة معاني المشاركة والمفاعلة، أي أن فعل التساؤل ليس من طرف واحد، بل حصول هذا الفعل من أطراف عدة، نحو «يتقاتلون»؛ أي: دفع طرف لآخر، وحصول هذا التدافع وممارسة فعله يحصل بأكثر من طرف؛ ومن ثم فإن «**يتساءل**» غير «**يسأل**» في الاستدلال على غياب الحق عن المخاطبين، وخلط الحقيقة وجهلهم بها كذلك؛ إذ «يسأل» تستلزم طرفاً فاعلاً في مقابل آخر مفعولاً فيطرح عليه السؤال؛ أي تثبت جهل السائل وعلم المسؤول، لكن دلالة المشاركة في «**يتساءل**» تفيد غياب الحق عن الجميع وجهلهم به، وكأن الجميع في تدافع فكري أصبح فيه الجميع سائلاً، وفي الوقت نفسه أصبح الجميع مسؤولاً، ولم نجد جهة معتبرة يرجع إليها الجميع لتزيل عنهم أوهام الشك، وضلال الكفر، وحيرة الجهل؛ ومن ثم تتأكد معاني حيرة القوم، ولغطهم في أسئلتهم، وخلطهم للحقيقة، ثم تجسيد هذا اللغط الفكري وحيرتهم وشكهم

إلى سلوكيات غير سوية في واقع حياتهم؛ وهو الاختلاف الذي تشير إليه السورة في «**الذي هم فيه مختلفون**»؛ ومن ثم فإنه في الاستدلال على سفه عقول القوم، وبلادة تفكيرهم، وجهلهم الكبير بأنوار الحق، نلحظ الآتي:

أولاً- الاستفادة من إمكانات مفردة «يتساءلون» البيانية، وهذا ما ناقشناه في الفقرة السابقة.

ثانياً- إضافة «التساؤل» «للنبأ»، و النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة الذي يحصل به علم أو غلبة ظن ..[1]؛ ومن ثم فإن هذا المكّون اللغوي يعمق استدلالات السياق، ويؤكد تناهي بعدهم عن الصواب في جحودهم إياه.

ثالثاً- الاستفادة من الأسلوب الطلبي الذي خرج عن مقتضى ظاهره إلى مقاصد دلالية إضافية جديدة، تفيد الإنكار الشديد على هؤلاء، والتعجب الكبير من سلوكهم هذا في صيغتي: «عما يتساءلون؟!»، و «عن النبأ العظيم ؟!».

رابعاً- الترجيع الأسلوبي المُتَهَكِّم، فنجد السؤال في «عم يتساءلون؟!»، ثم يرد بعدها ذكر الذي يتساءلون عنه، وبصيغة سؤال -أيضاً- يستدعى معه التهكم الشديد، والإنكار الكبير؛ إذ ورد «عن النبأ العظيم؟!» .. وكذلك أفاد هذا التعريض بالجواب بعد السؤال في تفخيم العبارة..

خامساً- لم يذكر بعد «النبأ» ما هو موصول به، ولا يدلي بحقيقته، بل يتركه بوصفه العظيم، وينتقل إلى التلويح بالتهديد الملفوف، وهو أوقع من الجواب المباشر، وأعمق في التخويف»[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء 30، ص9.

(2) قطب، في ظلال القرآن، مجلد 26، ج30، ص3803.

ووصف الخبر بالعظمة قد يكون هذا الوصف في ذاته؛ نحو ما ورد في هذه الآية، وقد يكون وصف الخبر بالعظمة لمآلاته الكارثية في واقع الحياة وأثره فيها؛ إذ قد لا يرقى الخبر إلى هذه الصفة في ذاته، ولكن عِظَم البلوى التي تحصل به يوصف بهذه الصفة، نحو ما ورد في سورة الحجرات «**إِنْ جَاءَكُم فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**»[3]، فكان لأثره على منظومة المجتمع القيميّة، وعلائقه الإيجابية، وكيانه المتماسك سبباً في وصفه بالنبأ.

الفصل – القيامة:

لقد ورد في السورة دلالة مفردة «الفصل»، ولم يرد –مثلاً- دلالة مفردة «القيامة»؛ لأنه ورد في مطلع السورة معاني التساؤل عن الحقيقة، والشّك فيها والاختلاف في حصولها؛ ومن ثم ناسب هذه المعاني ذكر «الفصل» فورد: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً**﴾؛ لأن الفصل في الشيء موصول بظهوره وجلاء حقيقته التي لا تحتمل الخلط والمواربة والاختلاف في الحكم عليه، وهذا حاصل في اليوم الآخر؛ ولهذا ناسب دلالة «الفصل» في ذكر هذا اليوم ووصف أحواله.

وكذلك في حساب الخلق على أعمالهم، وجزائهم عليها هو قضاء فيهم، وفصل في الحكم والجزاء؛ وبهذا حقّقت المفردة أمرين، **الأول**: ناسبت معاني شكهم وجحودهم للنبأ العظيم، **والآخر**: عبرت عن عرض الخلق للحساب والقضاء، وصورت بعض حالاته.

(3) الحجرات: 6

المستوى الثاني- في بنية الحجاج التركيبية:

يهمنا في هذا المستوى الدلالي الحجاج البلاغي الذي يخضع في بنائه وترتيبه لقواعد اللغة نحوياً وبلاغياً، ويتميز بأمور منها: خضوع حججه للترتيب والتنظيم، والآخر: اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعي[1]؛ ومن ثم جعل (بيرلمان Perelman) «البلاغة مطابقة لنظرية الاحتجاج، فحصر الأولى في الأخيرة»[2]؛ إذ تؤدي الأساليب البلاغية وظيفة إقناعية استدلالية، وأغراض تواصلية..[3]، وهذا ما نبين بعض جوانبه في الآتي:

«عم يتساءلون؟!»:

يتمتع التركيب الاستفهامي بأهمية كبيرة في بنية الخطاب الحجاجية؛ إذ تفيد هذه الصيغة في الأصل إلى الاستعلام، ولكنها غالباً ما تأخذ أهدافاً أخرى تتنوع بحسب مراد الجملة الاستفهامية في سياقها[4]، وهذا ما نجده في صيغ: «عم يتساءلون ؟»، و«ألم نجعل الأرض مهاداً ؟»، و«والجبال أوتاداً ؟» ... حتي «وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً؟!».

إن الاستفهام فيه تأثير على المخاطب وتشويق له، يفيد في تمكن الخطاب في نفس السامع، ويحقق الآتي:

أولاً- استثارة المخاطب، وتهيئته للحكم الذي تقرره السورة.

ثانياً- لا يكون هذا الخطاب من طرف واحد فقط، ولكن يفترض مع توجيه الخطاب بصيغ الطلب الاستفهامية للمخاطب أن ينشغل ذهنه وعقله بأفكار كثيرة موصولة بهذه الصيغ الطلبية، وتجيب عنها..كما يشير إلى هذا (ديكرو) و(أنسكومبي) ويؤكدان أن الاستفهام يفرض على المخاطب به إجابة محددة يمليها المقتضى الناشئ عنه، فيتم توجيه الحوار الذي نخوضه معه الوجهة التي نريد؛ ومن ثم يأتي لإجبار المخاطب على الإجابة وفق ما يرسمه له البعد الاستفهامي الاقتضائي[5].

ثالثاً- يُفَعِّل المتلقي الخطاب ويشركه في إنتاج معاني النص؛ إذ إن هذه الصيغ الاستفهامية خرجت عن مقتضى ظاهرها إلى مقاصد دلالية بعيدة، وهي أدق وأنسب في تأكيد مراد السياق وبيان معانيه؛ ومن ثم يأخذ المتلقي في تتبع هذه المعاني في هذ الصيغ، واستكشاف ما وراء ظاهر دلالتها من معاني ودلالات..

رابعاً- إن هذه الصيغ الاستفهامية تفيد دلالة التعجب من حالهم في إنكارهم للحق، وتفيد التعليل كذلك، والتعليل من صور الحجاج؛ لأنه يقدم فكرة، ويبين سببها، والنفوس « أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها »[6].

الجملة الفعْليَّة:

إن لصيغ الفعل في مفتتح الصيغ التركيبية

(1) حبيب أعراب، الاستدلال الحجاجي، ص110

(2) ولد محمد الأمين، محمد سالم ولد سالم، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره، ص75

(3) ينظر: صابر لحباشة، التداولية والحجاج ومداخل ونصوص، ص 50.

(4) ينظر، درنوني، الحجاج في النص القرآني، ص94.

(5) علوي، حافظ إسماعيلي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ص66.

(6) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، ج2، ص873

لآيات بناء الكون وإيجاد الخلق، وكذلك في آيات هدم الكون ودماره تفيد في تحقيق المعاني الاستدلالية الآتية:

أولاً- إن بناء الكون وإيجاد الخلق فيه هي أحداث أفعال موصولة بظرف زمني محدد؛ ومن ثم جسدت صيغ الفعل وأحداثه متواليات هذه الأحداث وحصولها أكثر من صيغ الجملة الاسمية التي تفيد معاني الثبات..

ثانياً- إن الفعل وفاعله وزمن حصوله تجعلنا نعايش الحدث وأحواله أكبر وأكثر ..[1].

ثالثاً- تجسد متواليات حصول أفعال الأحداث عدم ثبات الموجودات في أحوالها وصفاتها، وتؤكد متغيرات أحوالها بين العدم والوجود، وبين الحياة والموت، وبين الإيجاب والسلب وهذه كلها معانٍ أساسية في استدلالات الآيات في حجاجها المعنيين بالخطاب في هذه السورة..

رابعاً- إن ذكر الفعل يستدعي معه فاعله، وهو موضوع أساس في حجاج الآيات، وفي تأكيدها قدرة الله (تعالى) المطلقة في الخلق، وفي البعث -كذلك- بعد الموت .. وهذا الفاعل ورد بضمير الجمع، وضمير الجمع هذا فيه من معاني الجلال والعظمة والتقدير أكثر وأكبر من المفرد، وهذا ما يناسب مقام الله (سبحانه وتعالى) ..

«كلا سيعلمون»:

ونجد قوة الجرس الصوتي ومعاني قوة الردع والزجر مؤثرة في ردع المخاطبين في «كلا»، ثم نجد في ذكر: «**ثم كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ**» ارتقاء في الوعيد والتهديد؛ لأن «ثم» عطف للترتيب الرتبي، ومعناه أن مدلول الجملة الثانية المعطوفة على سابقتها أرقى رتبة في الغرض من مضمون الجملة التي قبلها، وأقوى وعيداً[2]، ونجد حذف مفعولي يعلمون في: «**كلا سيعلمون**» يجعل كل شيء يمكن أن يعلمه الإنسان أو يتعلمه في قريب الزمان أو بعيده داخلاً في هذا السياق، أو محتملاً أن يكون في مفعولي يعلمون»[3].

«جزاءً وفاقاً» - «جزاء من ربك عطاء حساباً»:

إن ذكر الشيء موصول بثمرة فعله مفيد في قوة الاستدلال وتأثيره على المعنيين في حجاج الآيات، ومن ثم ورد - في الآيات- ذكر مآلات أهل الحق والإيمان، في مقابل ما يؤول إليه حال أهل الكفر والإلحاد، ونلحظ التصريح بصاحب العطاء في أهل الجنة :«من ربك»؛ لأن المقام مقام تكريم أهلها وتشريفهم، فكان التصريح بصاحب هذا العطاء تكثيراً للفضل والكرم وزيادة فيه؛ لأن الإشارة للمعطي إشارة لمقدار عطائه، كما أفاد تنكير العطاء عمومه، وشموله، وكثرته، وتستدعي -كذلك- صيغة التنكير معاني كثيرة في طبيعة هذا العطاء، ونوعه، ومقداره، مع أناقة في التعبير، وجرس في التقسيم بين: (جزاء) و(عطاء)[4].

ونجد مناسبة معاني الربوبية التي تفيدها مفردة «ربّ» لسياق الجزاء والعطاء.. وكذلك نلحظ في إضافة كاف خطاب رسول الله ﷺ في صيغة «رَبِّكَ» – فيه إشارة إلى أن إسداء الله

(1) ينظر: أمين، بكري شيخ، **التعبير الفني في القرآن الكريم**، ص257.

(2) ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج30، ص12.

(3) أمين، بكري شيخ، **التعبير الفني في القرآن الكريم**، ص255.

(4) ينظر: قطب: **التصوير الفني في القرآن**، ص75.

(تعالى) هذه النعم على المخاطبين كان لأجل إيمانهم به، وعملهم بما هداهم إليه[1].. ثم يأتي التعقيب بـ : «رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن» لبيان الحقيقة الكبرى، وهي حقيقة الربوبية الواحدة التي تشمل الإنسان، كما تشمل السموات والأرض، وتشمل الدنيا والآخرة، ومن ثم تعبر عن السياق العام للنص القرآني.

«ذلك اليوم»:

إن الإشارة بـ «ذلك» إلى دلالة «اليوم» المتقدم ذكره في: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا» فيه استحضار هذا اليوم بالإشارة إليه، وتأكيد على أن المشار إليه حقيقة حاضرة ممكنة المشاهدة والوصف، ثم يتأكد حقيقة هذا الحضور أكثر وأكبر بإضافة دلالة «الحق» في وصفه، فورد «اليوم الحق»، ثم تُضَاف دلالة العظمة لهذا اليوم وشدة وقعه على الخلق في تعريفه بالألف واللام؛ لتأكيد الصفات المشار إليها فيه، وكأن ما عداه من الأيام المشهورة في تاريخ البشر غير ثابت الوقوع: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

إن دلالات التهديد والردع والزجر في : «كلا سيعلمون»، «ثم كلا سيعلمون» التي وردت في مطلع السورة موصول بمعاني: «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه، ويقول الكافر ياليتني كنت تراباً » التي وردت في خواتيم السورة، وتناسبها[2]، إذ تلقي خواتيم السورة بخواتيم حياة من كفر بالحق وجحده، وتلقي بظلال الرهبة والندم التي يتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم ويصير إلى عنصر مهمل زهيد[3]، وكأن هذه النهاية تحقيق لما أشارت إليه السورة في بدايتها من حقائق، وحصول العلم الذي حذرت منه في: «**كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون**»، ويزيد من تجسيد معاني الحضور لهذه الحقيقة الفعل المضارع: «ينظر» و «يقول»..

المستوى الثالث في بنية الحجاج الفنية :

إن هذا النوع من الحجة هو الأكثر تأثيراً في المتلقي، يقول (طه عبد الرحمن) : « لا يخفى على ذي بصيرة أن نموذج الحجاج هو قياس التمثيل؛ إذ المعروف أنه هو الاستدلال الذي يختص بالخطاب الطبيعي، في مقابله البرهان هو استدلال يختص بالقول الصناعي »[4]، ومن صور الحجاج الفنية التي سنناقشها الآتي:

«وجعلنا الليل لباساً»:

إن ذِكْر: «الليل لباساً» ورد في سياق تمدح الله بنعمه على الإنسان، وفضله عليه بمنحه الكثرة والوفرة، فشبه «الليل» بـ«اللباس»، وهو محمول على معنى ما يلبسه الإنسان من الثياب فيكون وصف الليل به على تقدير كاف التشبيه البليغ، ويفيد الاستدلالات الآتية.

أولاً- إن الليل ساتر للإنسان كما يستره اللباس.

(1) ينظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ص47.
(2) ينظر: الزمخشري، **الكشاف في حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل**، ج4، ص27.
(3) قطب: **في ظلال القرآن الكريم**، مجلد 6، ج30، ص 3809-3808.
(4) طه عبد الرحمن، **اللسان والميزان**، ص232

ثانيـاً- المشابهة في الرفق باللابـس والملائمة لراحته؛ إذ إن الليل فيه راحة الإنسان، وهو محيط بجميع حواسه وأعصابه؛ ومن ثم شبه باللباس.

ثالثاً- إن وجه الشبه باللباس هو الوقاية، فالليل يقي الإنـسان من الأخطار والاعتـداء عليه، وكان العرب لا يغير بعضهم على بعض في الليل[1].

وتقـديم الليل في مراتب الذكر قبل ذكر النهار مـوصول بالحقيقـة الكونيـة التـي فيهـا حـضور لليـل أكثر من النهـار، فالليل في الكـون يزيد عن نسبـة (70%)، وكذلك ذكر الليـل يتسع للمادي والمعنـوي: فالجهـل ليـل، والحـيرة والـشك ليـل كذلك، والكفر ليـل، وبهذا تلتقي هذه الصورة مع فكـرة الشك والاختلاف عن اليـوم الآخر والبعث بعد الموت الذي ورد في السورة ..

«وبنينا فوقكم سبعاً شداداً»:

إن الاستعـارة مـن وسائل الحجـاج التي تفيد في إقنـاع المتلقي والتأثير عليـه، يقول الجرجاني: « فقد حصل من هذا الباب أن الاسم المستعار كلما كان قدمـه أثبت في مكانه كان موضعه من الكلام أضمن به، وأشد محامـاة عليه، وأمنع لك من أن تتركـه وترجع إلى الظاهـر بالتشبيه فأمر التخيل فيه أقوى، ودعوى المتكلم له أظهر وأتم »[2].

وتكتـسب الاستعـارة تأثيرهـا في المتلقي وتثير انتباهـه بمـا تحققـه مـن غرابـة في التصويـر، وانحراف عن العادي والمألوف[3]، وهذا حاصل في هـذه الصورة الاستعارية؛ إذ نجد فيها من معاني الاستدلال وجمال التأثير الآتي:

أولاً- استعـارة البنـاء المادي المحـسوس لبناء السمـاء؛ لتجسيـد الحقيقة الغائبة غـير المدركة بالحقيقة التي ندركهـا ونحس بها وتراها أعيننا، وهـو البناء المـادي المعروف، والجامـع بينهما هو القـوة، والتماسك، والاتقـان؛ ومن ثم تتعزز بهذه الـصورة الاستعاريـة معـاني القـدرة المطلقة لله (تعالى) في خلق الموجودات الكونية العظيمة، وتبرز بها بعض معالم الدقة والإحكام لهذا الكون.

ثانيـاً- كانـت الإشارة الحسيـة أقـرب لحس المخاطـب، وإلى تكويـن صورة مجـسدة لتنـاسق الكون وترابطه؛ ومن ثم التأثير فيه.

ثالثـاً- إن دلالـة المفـردة «فـوق» تـشير إلى الفـضاء الفسيح فوقنا حيث لا قواعد، ولا أعمدة، ثـم يقترب الأداء اللغوي في تأثـيره على المخاطب أكثر وأكـبر، فيُخَصّص توجيـه الخطاب بضمير المخاطبين «كم»، وهم المعنيون بالخطاب في سياق هذه الآيات، والمُسْتَهْدَف التأثير عليهم به فوردت صيغة: «فوقكم» ..

رابعاً- عقب ذكر «فوقكم» بذكر «سبعاً» ولم يرد ذكر «السماء» لاستدعائها في السياق دون تصريح بها؛ ومن ثـم حصرت الآية توجيـه المخاطب إلى صفـة هـذه السبـع لا إلى اسمهـا فعقبـت بذكـر «شِدَاداً»، فتنقطـع أحوال الوهن وصفات الضعف التـي قـد ينشغل بهـا الذهن لهـذه السمـاء حال ذكـر «فوقكم سبعاً»، ويتأكد قوة البناء لها وشدته بإضافة هذه الصفة لها ..

(1) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص21-20.
(2) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص279.
(3) درنوني، الحجاج في النص القرآني، ص78.

المستوى الرابع: في بنية الحجاج المنطقية:

نبرز في هذه الفقرة الدلائل الكونية ونظامها المنطقي الدقيق الذي يجمع بينها، ونناقش السلم الحجاجي لها، ومراتب عناصره في الآتي:

السلم الحجاجي:

عندما تقوم بين الحجج المنتمية إلى فئة حجاجية ما علاقة ترتيبية معينة فإن هذه الحجج تنتمي إلى السلم الحجاجي[1]؛ إذ إن السلم الحجاجي: بنية متنامية لمراتب الحجج، وبالضرورة لابد أن يتسم بسمتين[2]، الأولى: كل دليل يرد في درجة من السلم الحجاجي، يكون الدليل الذي يعلوه أقوى منه، والأخرى: إذا كان الملفوظ « ب » يؤدي إلى النتيجة « ن » فهذا يستلزم أن « ج » و « د » الذي يعلوه درجة يؤدي إليها؛ ومن ثم يعمد السلم الحجاجي إلى معطيات مراتب تكوينية لغوية وواقعية، تعمق فكرته، وتفصل حقائقها، وتقوي تماسك عناصرها التكوينية لغوياً وواقعياً، ولتشكيل متواليات هذه الدلائل الرتبي في هذه السورة، وبيان نظامها، يمكن ترميزها بالرموز الآتية: (الأرض - أ)، و(الجبال- ب)، و(الإنسان- ج)، و(النوم-د)، و(الليل والنهار - هـ)، و(السماء- و)، و(الشمس- ز)، و(المعصرات- ح)، و(الماء- ط)، و(الحب والنبات - ي)..

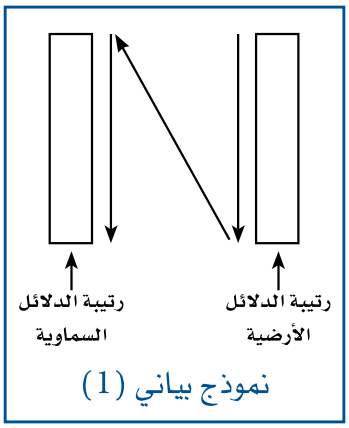

نموذج بياني (1)

ويبرز في **دلائل التكوين اللغوية ومراتبها الواقعية** العلاقات الآتية:

أولاً- علاقة الاحتواء:

إذ بدأت الآيات بذكر الأرض، والعلاقة التي تقوم بين الأرض وما ذكر بعدها من جبال وإنسان هي علاقة احتواء، ثم نجد الإنسان يحوي النوم وهو يحتويه كذلك، والليل يحوي النوم ويغشى الحياة وأشيائها ويحتويها، في مقابل هذه الدلائل الأرضية دلائل السماء؛ إذ نجد علاقة الاحتواء ظاهرة في أشيائها، فالسماء تحتوي ما بعدها من شمس، ومعصرات، وماء، ثم المعصرات تحتوي الماء، والماء يحوي مادة الحياة للموجودات النباتية والحيوانية، وهذا الاحتواء رتبيٌّ؛ أي كل سابق يحتوي للاحقه في ترقي من الأدنى إلى الأعلى، أو من القليل إلى الكثير، أو من الأصغر إلى الأكبر .. ونحو هذا.

ثانياً- جماليات التناسق والتوازن:

تُبْرز التقابلات توازناً بديعاً بين دلائل مشهد الأرض ودلائل مشهد السماء، وفي تنام رتبي في الذكر لموجوداتهما، فذكر السماء، فالشمس،

(1) علوي: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، ج1، ص18
(2) ينظر، علوي: **الحجاج مفهومه ومجالاته**، ج1، ص58

فالمعصرات، فالماء، في مقابله ذكر الأرض فالجبال، فالإنسان، فالليل والنهار، فاتزن بهذا التقابل البديع هذان المشهدان؛ ومن ثم اتصل هذا التوازن بجماليات التناسق لأجزاء هذين المشهدين؛ إذ تم توزيع أجزاء هذين المشهدين في جيز مكاني محدد، وبنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضاً، مع التَّدَرّج في الظلال الذي يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع[1].

وأخذت الآيات توجيه النظر في متواليات عناصر الوجود حتى وجَّه المخاطبين للنظر في دلائل السحاب والمطر، وإلى ما يخرج بها من الأرض من بدائع الصنائع ومنتهى المنافع فإذا هم ينظرون من حيث صدروا[2]، وهنا تَأَمَّل تتابع استحضار أشياء الوجود ونسق عرضها؛ ومن ثم كيف تبدو ماهية الإنسان وفاعليته أمامها، ثم ما الحيز الذي يشغله بينها، وفي هذا يتأكد الآتي:

أولاً- استثارة المخاطب وتفعيله لتتبع نسقها البنيوي، وعلاقاتها الفاعلة التي تحقق فكرة وتعالج عقيدة.

ثانياً- الإيحاء بالقصدية لهذا الوجود والغاية منه، فهذا النسق المنظم الذي يتسع لبنية الكلمة، ويمتد لأشياء الوجود، يجافي العبثية ويؤكد القصدية والغاية.

ثالثاً- علاقات التنامي الرتبي:

نجد في هذه الدلائل الوجودية علاقات توالدية بينها؛ أي ميلاد اللاحق من السابق، أو نتيجة منه؛ ومن ثم يأتي السابق في السلم الحجاجي لاحقاً له في المبنى اللغوي وفي زمن الوجود، نحو ما هو حاصل في الآتي:

«وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا» ⟵

«وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا» ⟵

«لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا» ⟵

الشمس ⟵سبب⟵ للمعصرات ⟵سبب⟵ للماء الثجاج ⟵سبب⟵ لإخراج النبات.

إن حضور الإنسان غير متحقق قبل وجود الأرض؛ ومن ثم ذكرت الأرض ودلائلها القريبة إلى الحس والنفس، ثم ذكر السماء وهو فضاء واسع لأشيائه كالشمس "السراج الوهاج"، ثم إن للشمس فاعلية في موجودات أخر، فهي سبب إثارة السحب "المعصرات"، والسحب سبب لحصول الماء "وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا"، والماء مصدر للحياة "لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا"؛ ومن ثم جسدت البنية اللغوية متواليات وجودية حاصلة في واقع الحياة، وإن توالي هذه الحقائق على هذا النحو تفيد تدبير الله (تعالى) وتقديره، وتُشْعِر بقدرة الله الحكيم؛ ومن ثم تلمس القلب بلمسات موقظة وموحية بما وراء هذه الحياة من قصد وغاية[3].

ونجد -كذلك- متواليات لمراتب حياة تقوم على علاقات سببية، تبدأ من الميِّت إلى الحياة ثم إلى حياة أكبر وأكثر، في: «**لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا، إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا**»، فالنبات والجنات لازم لها جراثيم بذرية لكي تطلع منها فيبقى الحبّ هو الأصل، وهو مقصود

(1) قطب، التصوير الفني في القرآن، ص97.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص28.

(3) قطب، في ظلال القرآن، مجلد 6، ج30، ص3806.

السيـاق، ومن الحب يكـون النبات، ومـن النبات يكون الجنات الألفاف ..

وبهـذا تأخذ دلائل الوجـود في الآيات صيرورة وتحوّلا من طور لآخر:

الحب ← النبات ← الجنات ← (النهاية) حب النبات ...

إن النبات يمثل حيـاة مصغرة للحياة الكبرى لأشياء الوجود كلهـا، وموت الحب موضع الشاهد في هـذا السياق، يـضاف إلى ذلـك مرحلية هذه الـصور وأثـر تتابـع إدراكها في الذهـن، ثم نجد معـاني القـدرة النافـذة لله (تعـالى)، وسرعـة إيجاده في دلالـة: «لنخرج»؛ إذ تحقق هذه المفردة مستوى دلالياً أقوى من دلالة «ينبت» مثلاً.

وبعـد هـذا التـوالي النامـي لمكونـات البنيـة نجد استحـضار أحـداث نهاية الكـون، في سياق تتـصل فيه حركـة البنـاء في صعودهـا الإيجابي بالفنـاء والتـلاشي لأشياء الكـون، وتمتد النهاية لـكل الموجـودات وتشملها؛ وفي هـذه النهاية بيان لاستئناف حياة جديدة غير هذه الحياة.

ومـن صور التنامـي الرتبـي في زمـن حصول الموجـودات ما نجده في ذكـر الجبال بعد الأرض، ثـم ذكر الليـل والنهار بعـد ذكـر الأرض؛ لأنهما حاصلان بحصولها، ثم كان ذكر الإنسان بعد هذا كله؛ لأن وجود الإنسان غير ممكن الحصول؛ ومن ثـم كان بهذه المراتب في زمن حـصول الموجودات تجسيد لكثير من الحقائق ..

ونلحـظ –كذلـك– في مراتـب ذكـر هـذه الموجـودات أن هنـاك علاقـات أخـر تربـط بين هذه الموجودات، تقوم علـى أساس عامل وجودها وبقـاء الحيـاة، فذكر الجبـال بعـد الأرض كونها عامـل ثباتهـا وبقائها، وذكـر الإنـسان بعد ذكر الجبال والليل والنهار والنـوم لأنها عوامل بقائه، وكذلـك موجـودات السمـاء التي توفـر ضرورات حياته كذلك.

رابعاً- علاقات التناسب:

إن مـن مظاهـر التنـاسب الذي لـه أثره على المتلقي الآتي:

أولاً- مناسبة المعاني لأحوال الحياة:

فحينمـا ذكـر (مهـاد) الأرض ناسبه ذكر النـوم، وحينمـا ذكـر النـوم ناسبـه التعقيب بالليـل، كون الليل الزمن المنـاسب للنوم؛ ومن ثم فإن المهـاد، والأوتاد، والتعقيب بالليل، ونوم الذوات يوحي بمشهد مكاني كبير، ومهاد وفير الراحـة للاستراحة فيه، وعنـاصر تحققه هو المكان المنـاسب وهو: «المهاد»، والزمن المناسب وهـو: «الليل»؛ ولهذا قـال: «نومكم»، وفي مقابل هذه السكنة الأرضية نجد وفرة عطاء السماء، والشمس، فالمعصرات، فالماء مقدمات لتحقيق الحيـاة، وإنبـات النبات، وتوفـير الطعام لهذا الإنـسان؛ ومـن ثـم تكاملـت عوامـل البقـاء، والحيـاة الطيبـة للإنـسان مـن هـذه العوامل الأرضية والسماوية ..

وقـد نـاسب الاستـدلال علـى حـصول البعث ابتـداء ذكـر خلـق الأرض في متواليات الموجـودات؛ لأنها مكان بعـث الخلق وحشرهم فيها؛ ومن ثم كان الأرض أسبق شيء إلى ذهن

السامع عند ذكر أمر البعث، والصق شيء بأحداثه، وذكر الجبال دعا إليها ذكر الأرض، ولتشبيهها بالمهاد الذي في البيت شبهت جبالها بأوتاد البيت تخييلاً للأرض مع جبالها بالبيت ومهاده وأوتاده[1]، لتقريب الفكرة الى متلقيها الذي يعايش هذه الصورة في حياته، وعندما ذكر السموات ناسبها ذكر أعظم ما يشاهده الناس فيها وهي الشمس، ففيها مع عبرة الخلق عبرة التكوين على تلك الصفة وفضل الله على الناس باستفادتهم منها[2].

ثانياً- التناسب النفسي:

نجد صوراً من التناسق النفسي الدقيق، لمراتب الأفكار وتواليها، وكأنها إجابات أسئلة تخامر نفس المتلقي عند سماعه مضامين الآيات، وتدور في خلده، وهذا التتابع الرتبي يتناسب مع هذه الخطرات لنفسية المصاحبة، فمثلاً في: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾، يتساءل المتلقي عن: لمن هذه النار؟.. فنجد التعقيب بالجواب: ﴿لِلْطَّاغِينَ مَآبًا﴾، ثم يأتي التساؤل عن طبيعة العذاب ومدته، فنجد التعقيب بعدها بالجواب: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾.. ثم قد يثار سؤال كبير في النفس عن لماذا كل هذا؟.. فنجد التعقيب بعدها بالجواب في: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ص15.
(2) المرجع نفسه.

المستوى الخامس: في نظام النص وعلاقاته الكلية:

الموضوع الأول- في الثنائيات:

إن الإطار العام للنص تشكله ثنائيات عدة، أبرزها الآتي:

أولاً- ثنائيات دلائل الموجودات:

إن المتواليات الرتبية من قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ إلى قوله (تعالى): ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ قد تم توزيعها في ثنائيات، وهي ثنائية الليل والنهار، وثنائية السبات والمعاش، والذكور والإناث، ثم بعد أن ذُكِرَتْ مشاهد الأرض وحالاتها، وأهم ما على الأرض من الجماد والحيوان ناسبها ذكر ما يقابلها من خلق العوالم العلوية، فقابل موجودات الأرض بموجودات السماء ..

ثانياً- ثنائية المظْهَر والمُضْمَر:

من استدلالات الحجاج المظْهَرَة دلائل الوجود الكونية التي أشارت إليه الآيات في قوله (تعالى): ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً ؟! ﴾.. حتى قوله: «وجنات ألفافاً» ذُكِرَت الموجودات المدركة بحواس الإنسان؛ لتبين قدرة الله المطلقة على الإيجاد، وتؤكد فضل الله في توفير عوامل البقاء في الارض والحياة فيها، وإن هذه الإشارات الحسية هي أقرب إلى فهم المخاطب وإدراكه، وفي ترتيب استدلالات الوجود ذكرت الأرض بموجوداتها أولاً، ثم ذكرت السماء بموجوداتها؛ لأن الأرض هي الأقرب إلى المخاطبين، ففيها يمشون، ومنها يتفيؤون نعم الله (تعالى)، وإلى أشيائها ينظرون ..

ومن استدلالات الحجاج المظهر الخلق الأول للإنسان: «وخلقناكم أزواجاً»، ولقد جاء هذا بعد مهاد الأرض، تجسيداً لمراتب الأحداث وتوالي حدوثها واقعياً، وهذا المهاد ضرورة لحياة الإنسان وبقائه.

وهذه الدلائل المُظْهَرَةُ موصولة بالحقائق المضْمَرَة في النفس والفكر التي تستهدف السورة جلاء الحق فيها، ودفع جهل المعنيين بالخطاب بها، وهذه الحقائق المضمرة هي موضوع السورة الرئيس الذي أشارت إليه في مطلعها؛ إذ بينت في الآية الأولى حتى الآية الخامسة الجدل الفكري للمعنيين بالخطاب وحقائقه المضمرة في أنفسهم؛ ومن ثم ندرك أن الخطاب القرآني يتسم بالعمق والشمول، إذ يصف أحوال النفس المضمرة كما يعالج أحوالها الظاهرة، وكان لهذه السمات في الخطاب القرآني أثرها في توظيف أساليب متنوعة في البيان، تؤسس للفهم، وتقوم على التأثير في المخاطب..

ثالثاً- ثنائيات البناء والهدم:

ويبرز في الآيات حركة أحداث الفعل في اتجاهين متناقضين الأول في البناء في مقابل آخر في الهدم؛ إذ نجد في الآية: «**ألم نجعل الأرض مهاداً ؟!**» حتى الآية «**وجنات ألفافاً**» تأخذ معاني الآيات في البناء والتكوين، وهذا التنامي والتكوين في الحياة وموجوداتها يقابله في اتجاه آخر أحداث «هدم» للحياة، وتلاشي الموجودات وذهابها، في: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾؛ ومن ثم يتأكد من هذا المعاني والحقائق الآتية:

أولاً- زمنية الموجودات في هذه الحياة، وعدم ثبوتها على كينونة واحدة.

ثانياً- إن فكرة (الإيجاد للحياة) أساسية في الأداء اللغوي للسورة؛ ومن ثم ناسب أن يأخذ هذا المشهد مساحة أكبر، وتفصيلاً أكثر؛ لأنه من أسس الاحتجاج والاستدلال .

ثالثاً- إن التناسق بين أشياء الوجود وتكاملها آية من آيات الله، ودلالة على قدرة النافذة في هذا الوجود.

رابعاً- تنبيه المخاطب إلى القوة الفاعلة والمدبرة لإيجاد الوجود، باستحضارها في بنية الفعل المبني للمعلوم: (نجعل، وخلقنا، وجعلنا، وبنينا، وأنزلنا، لنخرج)، أما في سياق الهدم فكان مقاصد السياق تكثيف دلالة التلاشي للأشياء وذهابها؛ ولهذا بنيت الصيغ الفعلية للمجهول: «يُنْفَخُ، فُتِحَت، سُيِّرَت».

الموضوع الثاني- في التحولات:

أولاً- التحوّل في السرد والترتيب:

يرجئ السياق القرآني الجواب عن تساؤلهم مراعاة لحال المخاطبين النفسية والفكرية، ثم يعدل إلى «ما هو واقع بين أيديهم وما حولهم وفي أنفسهم، وما في الكون من أمر عظيم، ليدل على ما وراءه ويوحي بما سيتلوه[1]، فقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

(1) قطب، في ظلال القرآن الكريم، مجلد 26، ج30، ص3802.

وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾؛ إذ حثهم للتفكر في حقائق العين، لتأكيد حقائق الغيب؛ ومن ثم لم يبعد السياق القرآني عن القصد وإنما اقترب من القصد بإيجاد دليل القصد»[1]، فلما أخذهم بالحجة، واستثار النفوس بجلاء الحق، تحول إلى تفصيل ما تساءلوا عنه وبيان أحواله، وهو يوم الفصل.

ثانياً- التحول في جرس الصوت:

وكان للجرس الصوتي أثره في كل موضع[2]، إذ نجد في: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ جرس الصوت للفاصلة هو «الواو +النون» وضم الشفتين في نطق حرف الواو، وكذلك ثقل صوته بعده صوت النون يشكل جرساً صوتياً خافتاً ومكتوماً، كأنها تحاكي الفكرة الغائبة والمحبوسة التي أضمرتها القلوب والنفوس، ثم عدل عن صوت هذه الفاصلة في حال الانتقال إلى دلائل الخلق الظاهرة في: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾، إذ نجد جرس صوت الفواصل يوقظ الحس، ويشد النفس لقوته، وذلك لانفتاح صوت حركة الفتحة في الحرف الأخير، وإطلاقه امتداداتها الصوتية التي تناسب عرض الحجج وتقدم الدلائل، فحصل التأثير على المخاطب بحجج ودلائل الموجودات المشاهدة، وبشدة جرس أصوات حروف الذي استمر في متواليات حتى أُسْدِل الستار على أحداث هذه السورة ومعانيها، في نبرة يأسٍ ملهوفةٍ، وأمنية تحشرج بها صدر المنكر للحق، فيقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

إن هذه «الجولة التي تنتقل في أرجاء هذا الكون الواسع العريض، وهذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد تذكر في حيز ضيق مكتنز بالألفاظ والعبارات، مما يجعل إيقاعها في الحس حاداً ثقيلاً نفاذاً كأنها المطارق المتوالية، بلا فتور، ولا انقطاع، وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين، صيغة مقصودة هنا، وكأنها يد قوية تهز الغافلين»[3].

رابعاً- الخاتمة:

يخلص البحث إلى تأكيد أنه كلما اتسعت البنية اللغوية تعددت آليات بيانها وتنوعت؛ ومن ثم قَوِيت حجتها وتأثيرها، وأن الحجاج في سورة النبأ أخذ بقوة بيان أداء اللغة، ثم بما تؤول إليه من حقائق الوجود، وَمَشَاهد الحياة الحاضرة

(1) الشعراوي، المنتخب، ج2، ص46.

(2) قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، ص86.

(3) قطب، في ظلال القرآن، مجلد 6، ج30، ص3804.

والملموسة للاستدلال بها على الغيبي وغير المُشَاهَد..

وكذلك يؤكد البحث أن العلاقات المنطقية في معطى البنية اللغوية الموصولة بالكوني والإنساني في واقع الحياة هي مكون رئيس في حجاج السورة واقناعها العقلي؛ ومن ثم يتصل عالم النص بعالم الحياة وأحواله ومآلاته، وتتصل مقدمات سورة النبأ بنتائجها، ودلالات السلب في مطلعها بسلب النتائج في نهايتها، وهذه المعاني والأحوال هي ما تؤول إليه ممارسات الإنسان في حياته .. في مداها القريب والبعيد.

وإن توجيه الآيات للنظر في أشياء الوجود والتفكير فيها، يُقرّ بضرورة هذا التفكير ويحدد أهميته؛ ويؤكد أن عظمة الشيء الذي نفكر فيه وقيمته دليل على عِظَم الفكرة الناتجة عن هذا التفكير؛ ومن ثم فإن القرآن يوجه تفكير الإنسان إلى ما هو عظيم في التأمل والنظر، وفي الفكر والتصور ..

ويؤكد البحث -كذلك- أن خطاب القرآن الكريم موجه إلى إنسان الماضي والحاضر والمستقبل، وهو خطاب يُوَصِّفُ أحوالَ النَّفس الإنسانية المضمرة، ويعالج -كذلك- أفعالها الظاهرة، وهو يُوَفِّقُ بين تداخلات المُضْمَر وَالمُظْهَر وتفاعلاتهما إيجاباً أو سلبياً؛ وبهذا اتسمت بنية الحجاج القرآني بالشمول، والاتساع، والعمق؛ ووظفت أساليب متعددة ومتنوعة تُؤَسِّس لفَهْم المتلقي وإقناعه؛ ومن ثم تستنهض تفاعله الإيجابي معها، وهذا ما تأكد في قوة أداء هذه السورة..

خامساً – بيبليوغرافيا :

أولاً- القرآن الكريم برواية حفص ..

ثانياً- الكتب والمجلات:

- ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط1، دار الجيل، بيروت 1991م، مادة (ح ج ج).
- أبو البقاء الحسيني الكفوي، الكليات، المطبعة العامرة، مصر، 1278هـ.
- أرسطو، الخطابة، تح : عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1959م .
- إيفانوكس، نظرية اللغة الأدبية، تر: حامد أبو أحمد، مكتبة غريب، القاهرة، ط1، 1988م .
- إيمان درنوني، الحجاج في النص القرآني (سورة الأنبياء نموذجاً، اطروحة ماجستير، كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.
- بكري شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، ط7.
- جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، 2009م.
- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، نشر: مجمع الملك فهد، سنة 1426م.
- جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب، القاهرة، (د.ط)، 2000م.
- حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010م .
- حبيب أعراب، الاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر، مجلد 30، ع1، 2001م .
- الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم سورة النمل نموذجًا»، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد12، ديسمبر1997م.

- الرئيس ابن سينا، الشفاء (كتاب الجدل)، المطابع الأميرية، القاهرة 1385م .
- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ط16، 2002م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط 11، دار الشروق، بيروت 1985م.
- صابر الحباشة، التداولية والحجاج ومداخل ونصوص، صفحات للطباعة والنشر، سورية، ط1، 2008م.
- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1998م.
- عبد الحليم بن عيسى، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن، التراث العربي (د.ت).
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، ط1، 1998م
- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الإبياري، دار الريان للتراث، (د.ت).
- محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ط1، الدار التونسية، تونس، 1984م.
- محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار صادر، بيروت، مج 2، ط1، 1997م .
- محمد سالم ولد سالم ولد محمد الأمين، (مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة)، مجلة عالم الفكر، م28، ع3، يناير- مارس 2000م.
- نجم الدين الطوفي، عَلَم الجذل في علم الجدل، (بدون تاريخ ودون طبعة).
- نعمان بوقرة، نظرية الحجاج، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العدد 407، آذار 2005م.